قناة السويس بين الماضى والحاضر

للدكتور سليمان حزين

فى هذه الايام التى تكتب فيها مصر تاريخها من جديد بعد أن أعلن رئيسها تأميم قناة السويس ، واستردت الامة حقها الكامل فى هذا الجزء العزيز من الوطن الكريم ، من المفيد ان أستعرض تاريخ هذه القناة وصلتها بموقع مصر الجغرافى الفريد كهمزة الوصل بين الشرق والغرب ، ومعقد الاتصال بين القارات ، ومفرق بحار الشمال وبحار الجنوب ، لنقارن بين الماضى والحاضر ، ولنستطيع فى ضوء ذلك ان نحكم حكمنا الصحيح المستنير على مدى أهمية هذا القرار الخطير والحدث الذى يتجه بتاريخ مصر ومكانتها العالمية اتجاها جديدا يصحح الاوضاع ويرد الى أرض الكنانة مكانتها العالمية بين الشرق والغرب كما يرد لها حقها الطبيعى فى ان تكون سيدة الموقف بحكم موقعها الجغرافى ومكانتها التاريخية التقليدية بين الامم والشعوب .

ولئن كانت الطبيعة قد حبت أرض الزاوية التى نعيش فيها بموقع جغرافى لا يضارعه ، بل ولا يدانيه ، موقع أى بلد آخر فى العالم ، فان هذا الموقع كان بالنسبة لمصر مصدر نعمة كبرى فى عهود قوتها واستقلالها بهذا الموقع ، وكان مصدر نقمة وبلاء فى عهود ضعفها واستكانتها وطغيان الاجنبى وسيطرته عليها ، والدرس الذى نتعلمه عن التاريخ ، هو ان

مصر فى حالة قوتها وازدهارها وأمنها وسلامها كانت دائما تقوم على المواصلات العالمية وتيسر أسبابها بالبر والبحر . وتحمل أمانة التجارة ورسالة الاتصال الثقافى بين الشرق والغرب . وتتيح لابناء آسيا والمناطق الحارة فى بحار الهند وأفريقية ان يتصلوا اتصالا حرا آمنا مثمرا بأبناء البحر الابيض المتوسط وما وراءه فى أوروبا وفى الشمال .

أما فى عهود الضعف حين أصاب مصر الانحلال الداخلى ، وحين طغى عليها غزاة أجانب وفدوا اليها ليحتلوا موقعها الجغرافى وليتحكموا عن طريق هذا الاحتلال بالمواصلات العالمية ، وليبلغوا بذلك مآربهم فى السيطرة العالمية ... فى مثل هذه العهود كان احتلال مصر وبالا عليها من جهة ، واستغلالا لموقعها من أجل تحقيق مآرب استعمارية وأهداف امبراطورية باغية من جهة أخرى . ذلك ما حدث عند ما احتل الرومان أرض مصر فى العهود القديمة ، وما حدث عند ما احتل البريطانيون أرضها وقناتها فى العهد الحديث ، فدخلوا بمصر فى دور من الاستغلال الرخيص واستنزاف دم البلاد وموردها الاصيل وحرمان أبناء الكنانة من القيام برسالتهم الخالدة كحراس للاتصال الحر الطليق بين البحرين . واستطاع الانجليز بعد أن أخضعوا مصر لسلطانهم ان يستغلوا قناتها فى سبيل تحقيق مآربهم الاستعمارية ، وتمكين سيطرتهم على مواصلات البحار . فلم يعد الامر أمر تجارة أو نقل بحرى وانما غدا أمر امبراطورية تنشأ ، وتمكن لها أسباب الاتصال العسكرى . وأصبحت قناة السويس نقطة الارتكاز لاحكام السيطرة على الهند رغم بعد الشقة . وأصبحت كذلك نقطة ارتكاز توسع منها البريطانيون جنوبا مع وادى النيل ومع البحر الاحمر وسواحل أفريقية ، وشرقا الى أرض فلسطين

والحجاز والاردن وأطراف العراق ، وشمالا الى أبواب القسطنطينية وبلاد اليونان فى الحرب العالمية الاولى ثم فى الحرب العالمية الثانية ، وغربا الى ليبيا وشمال أفريقية . فكأن القناة لم يعد أمرها أمر طريق بحرى ، وانما غدا فوق ذلك أمر ارتكاز عسكرى من أجل تحقيق السيطرة العالمية ، ومن أجل تكوين امبراطورية تقوم على الغزو والفتح والعدوان .

وهكذا نتلقى عن التاريخ درسا فى غاية الاهمية وفى غاية الخطورة ، لا بالنسبة لمصر وحدها ، وانما بالنسبة للشرق القريب كله ، بل بالنسبة للعالم أجمع ، هذا الدرس هو ان مصر القوية المتمكنة فى موقعها كانت دائما توجه هذا الموقع فى سبيل خيرها والخير الانسانى العام . أما مصر التى يحتلها الاجنبى الغاصب فانها كانت لا تملك من أمرها شيئا ، وكان الاجنبى يسخر موقعها من اجل تحقيق مآرب لاتتصل بالامن ولا الرخاء أو السلام العالمى بسبب من الاسباب .

على هذا النحو أعاد التاريخ نفسه أكثر من مرة . وبدأ هذا التاريخ أيام مصر القديمة فى أواخر العهد الفرعونى عند ما فكر المسلمون فى أول مرة فى ان يشقوا مفرق البحرين ويصلوا بين النيل وبين الطرف الشمالى لخليج السويس . وكان للنيل فرع قديم يسميه الجغرافيون القدماء باسم الفرع البيلوزى ، وهو يبدأ من رأس الدلتا ويتجه شرقا فى وادى طميلات الذى تسير فيه ترعة الاسماعيلية فى الوقت الحاضر . ويصل الى منطقة البحيرات وبرزخ السويس ، ثم يصب فى النهاية عند منطقة الترعة القديمة الى الشرق من بور سعيد . فرأى المصريون ان من الميسور ان يوصل هذا الفرع القديم ببحيرة التمساح والبحيرة المرة . ومن هناك تنصرف المياه الى خليج السويس . وعلى هذا النحو استطاع

المصريون القدماء ان يصلوا بين البحرين وان يفتحوا أبواب الاتصال المائى بين الشمال والجنوب · والشىء الطريف أن هذا العهد المتأخر فى أيام الفراعنة ، امتاز بأنه كان عهد اتصال تجارى وفكرى استفاد منه المصريون وغيرهم لا سيما الاغريق القدماء الذين نشطت تجارتهم وأفادوا كثيرا من فتح هـذا الطريق المائى ·

واستمرت الحالة على هذا النحو أيام البطالسة الذين عنوا كل العناية بتطهير مجرى الفرع البيلوزى من الطمى الذى يتراكم عاما بعد عام وفتحوا أبواب التجارة على مصاريعها ، واتخذوا من مصر وطنا لهم وتطبعوا بطبائع سائر المصريين واعتنقوا ديانتهم . وغلبتهم البيئة المصرية ، فشملتهم وطبعتهم بطابعها المصرى الظاهر فى كل شىء وازدهرت الحياة فى مصر كما ازدهرت التجارة العالمية ، حتى جاء الرومان ودخلوا مصر غالبين فاتحين ، فلم يتطبعوا بطباع أهلها ولم يندمجوا فى سكانها ولم يتيحوا للبيئة المصرية الطيبة ان تهضمهم ، وانما حاولوا الاحتفاظ بكيانهم كغلبة وفاتحين · وانعكست صورة ذلك فى حياة مصر كلها ، فأصبحت مصر لا تزيد عن أن تكون مزرعة تمول روما بالقمح · أما الاتصال البحرى فقد اضمحل ثم اندثر لان الرومان لم تكن فيهم طبيعة المصريين الذين يعرفون كيف يوجهون الاتصال البحرى عن طريق بلادهم وجهة الخير والنفع العالمى العام · وانما انساق الرومان نحو انشاء امبراطوريتهم العريضة فى الشرق الاوسط وكان ذلك على حساب مصر واستغلالا لموقعها الجغرافى ·

ثم تغير التاريخ أيام العرب حين فتحوا مصر فلم يدخلوها كغزاة ، وانما دخلوها كمحررين ، ورحبت مصر بهم فاندمجوا فى حياتها ، وتوحد طابع الفكر والثقافة والدين بين مصر وما

يجاورها من أقطار العروبة . وعاد العرب ففتحوا قناة أمير المؤمنين أو طهروها بعد ان تراكم فيها الطمى وسدها أيام ان أهملها الرومان والبيزنطيون . ولم تلبث مصر ان ازدهرت فيها الحياة أيام الدول العربية المختلفة التى قامت فيها ، وأصبحت مركزا للتجارة ومنارا للعلم والثقافة فى وقت واحد. وتيسرت لمصر أسباب القوة، فلم تسخر قوتها فى سبيل الفتح أو العدوان ، وانما سخرتها فى سبيل الدفاع عن كرامتها وكرامة الشرق الادنى كله . تمثل ذلك فى أكثر من عهد واحد ، أيام الحروب الصليبية التى كانت عدوانا سياسيا من الغرب الاوروبى قبل ان تكون حربا دينية . ثم أيام التتر والمغول الذين حطموا بغداد فى عام ١٢٥٨ الميلادى، ثم هزمتهم جيوش المصريين فى موقعة عين جالوت بأرض فلسطين الطاهرة بعد ذلك بأربعة أعوام،وأنقذوا بذلك حضارة المشرق الاسلامى والعربى كله ، بل أنقذوا بذلك تراث الانسانية الذى كادت ان تدمره جحافل التتر والمغول .

وعاد التاريخ فتغير أيام حكم الاتراك الذين دخلوا مصر ولم يكونوا ليعرفوا عن التجارة أو الاتصال الثقافى شيئا يذكر. فأهملوا القناة كما أهملوا الاتصال التجارى والثقافى. ودخلت مصر فى عهد من الظلمة والضعف والاستكانة ، جاء الاستعمار الاوروبى فى أعقابه فوجد مصر هزيلة ضعيفة . ووجد الطبقة الحاكمة فيها منحدرة من أصل تركى لم يندمج فى حياة مصر كما اندمج البطالسة الاقدمون ، ولم يتجاوب مع ادراك المصريين للحقيقة التاريخية الخالدة ، وهى أنهم القوامون على موقعهم الجغرافى ، والقائمون على رسالتهم الباقية على الزمن كهمزة الوصل والامن والسلام بين شعوب العالم القديم . واستطاع الاستعمار ان ينفذ الى موقع مصر ، فانطلت حيلته على نفر من حكامها وشقت القناة . ولم تستطع الطبقة الحاكمة

الغريبة عن مصر ان تساور شعور المصريين وادراكهم السليم الصحيح لقيمة القناة التي ينبغي ان تكون للمصريين أنفسهم، حتى لا تسخر من أجل استعباد مصر ، ولا تتخذ وسيلة من اجل تحقيق السيطرة العالمية .

وهكذا وجدت حيل الاستعمار فرصتها عن طريق حكام مصر . وأفاد الاستعمار من ان شعب مصر اذ ذاك كان مغلوبا على أمره ، بعد ان قضى ثلاثة قرون ونصف قرن تحت نير الحكم التركي وما جاء في أعقابه ، ووضعت بريطانيا يدها آخر الامر على القناة بعد مساومات خسيسة مع قوى الاستعمار الاخرى ، ومنها فرنسا التي احتلت تونس في عام ١٨٨١ ، فتغاضت عن احتلال بريطانيا لمصر وقناتها في عام ١٨٨٢ . وسار التاريخ في اتجاهه الذي تعرفه ، والذي لم يكن فيه الامر أمر اتصال تجاري ومواصلات بحرية فحسب ، وانما غدا أمر احتلال وتوسع وفتح واستعمار وسيطرة عالمية .

في ضوء هذا العرض نستطيع ان ندرك كيف اننا نعيش اليوم في نقطة تحول خطير في التاريخ . وكيف ان هذه الثورة العظيمة حين حررت أرض القنال ثم استردت حق مصر غير المنازع في قناتها البحرية ، وحين ردت للمصريين اعتبارهم ، وردت لهذا الوطن كيانه المتكامل ، وحين أقامت من أبناء مصر حراسا على موقع بلادهم ، وحماة للاتصال الحر الطليق بين البحرين ... حين فعلت ذلك قد حولت مجرى التاريخ ، وحولته الى ما يخدم استقلال مصر ورفاهيتها من جهة ، ويخدم الأمن والسلام والاتصال العالمي من جهة أخرى ، كما يقطع السبيل الى غير رجعة على الاستعمار ، فيحول بينه وبين ان يتخذ من مصر أداة للعدوان في المشرق ، أو نقطة ارتكاز من أجل تحقيق السيطرة العالمية الغاشمة .

ألا بارك الله هذه الخطوة ، وهذا التحول الحاسم الخطير نحو الخير ونحو الرفاهية ، ونحو الامن ، ونحو السلام العالمي .

القناة الاولى

obeikandl.com

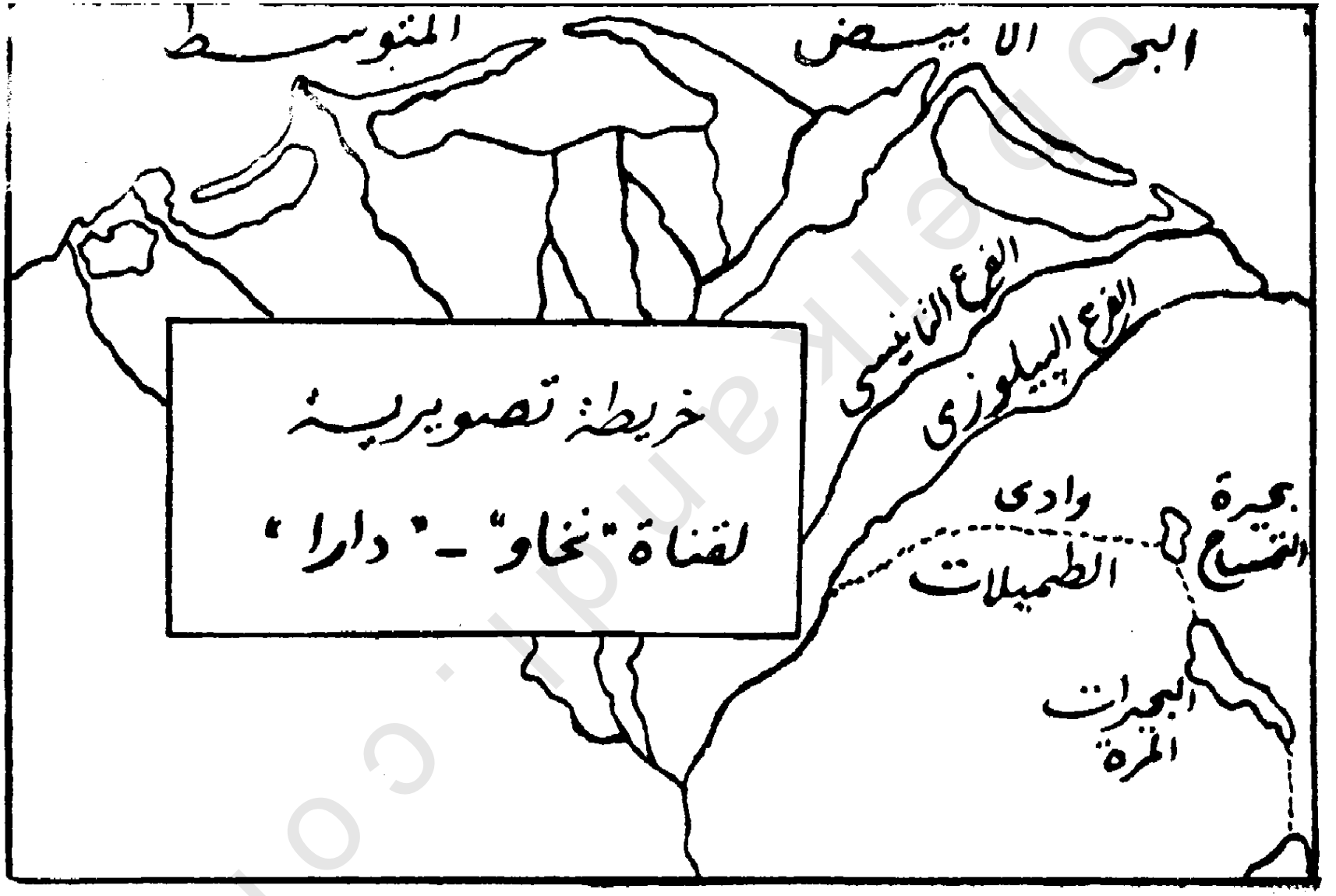

القناة الثانية

بيئة ٥٢١ قبل الميلاد

... خط سير القناة

obeikandl.com

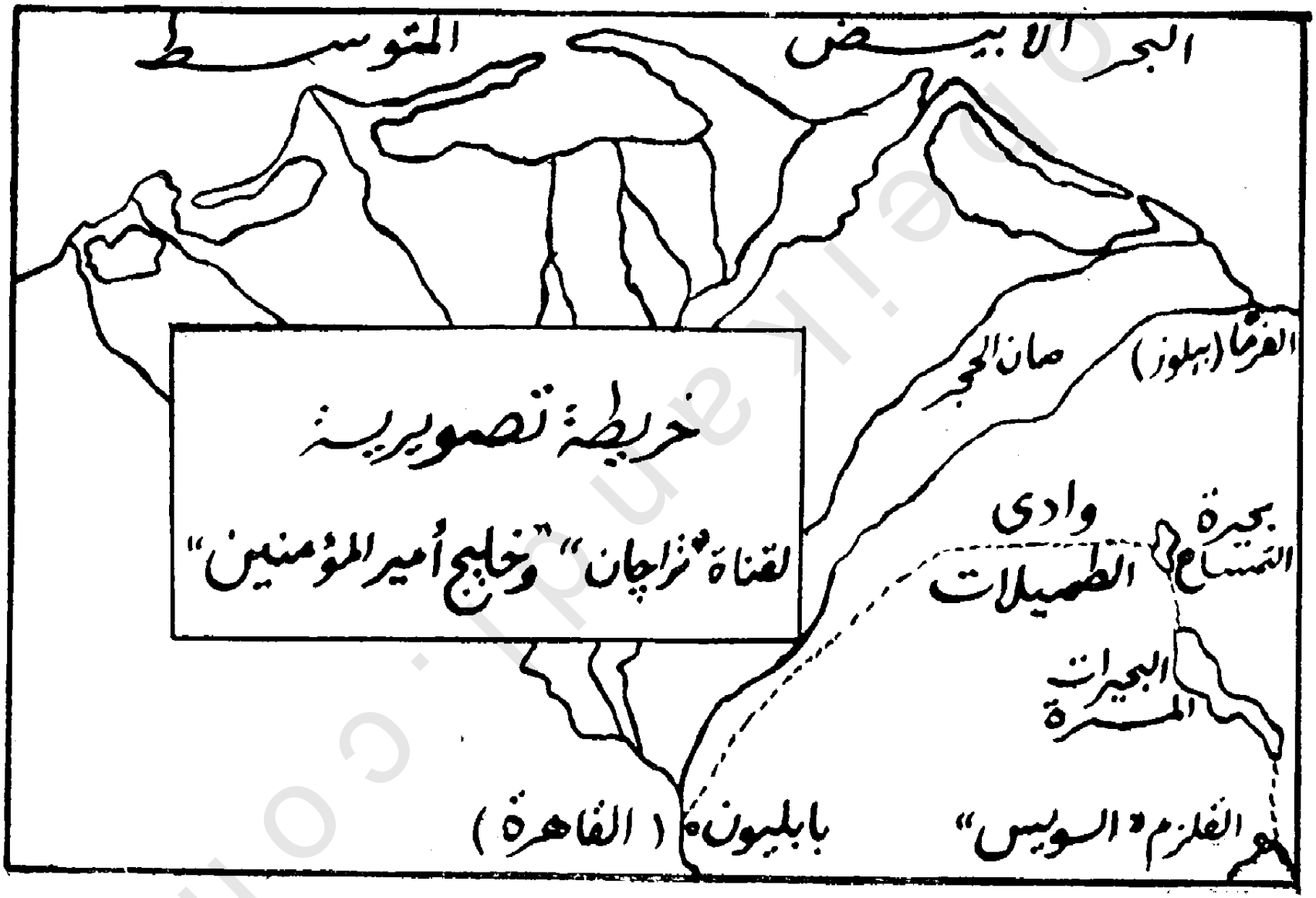

القناة الثالثة

obeikandl.com

القناة الرابعة

مصرية ... للمصريين

منذ مولدها منذ ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦